

١٢ - معهد باستير بباريس

أنهك العمل المستمر قوى باستير وأضناه ، على أنه بالرغم من مرضه وضعفه ، كان يذهب كل يوم في سنة ١٨٨٨ للإشراف على معالجة المصابين بالكليب والوقوف على أنبائهم ، وكان شديد الاهتمام أيضا بمعهد ، الذي كان يشيد في ذلك الوقت على أرض مساحتها ١١٠٠٠ متراً مربعاً في شارع ديتو . وقد اشتركت في التمويل له مع حكومة فرنسا وشعبها حكومات بعض الممالك الأخرى وشعوبها . وبلغ مجموع الاكتتاب العام الذي عمل من أجل ذلك ٢٥٨٦٦٨٠ فرنكا ، صرف منها على الأثاث والبناء ١٥٦٣٧٨٦ فرنكا ، واحتفظ بالباقي للصرف من ريعه على المعهد .

وتم تشييد المعهد في أكتوبر سنة ١٨٨٨ ، وعُين يوم ١٤ / ١١ / ١٨٨٨ لحفلة الافتتاح ، وقد حضرها رئيس الجمهورية وألقيت فيها خطب مناسبة للمقام ، دارت كلها حول الاشادة بفضل باستير وعبقريته ، وما قام به في خدمة الانسانية من جهود .

ولما جاء دور باستير للكلام لم يتمالك أن يخطب ، فعمد إلى ابنه في قراءة خطابه . فبدأه ببذلة موجزة عن جهود فرنسا في سبيل

التعليم ، ثم أشار إلى ما لقي من التشجيع والتعزيد في سبيل إتمام بحوثه وإنشاء المعهد . ثم قال : —

«وكم يحزنتني أن أدخله رجلا غلبه الزمن ، وليس حوله واحد من أساتذته أو رفقائه في الجهاد ، فإذا كان ليس من الممكن أن أسمعهم اعترافي بما لهم على من فضل النصيح والتعزيد وإذا شعرت بالحزن العميق منذ موتهم ، فإن لي تعزية وسلوى عندما أفكر في أن ذلك الذي دافعنا عنه سويا باق على الدوام » .

ثم نصيح زملاءه ومساعديه بالاستمرار في العمل بجهد ونشاط ، وألا يتسرعوا في عمل من الأعمال ، وأن يعملوا لرفعة بلادهم والذود عنها .

وختم خطابه بكلمة وجهها إلى رئيس الجمهورية فقال : —
« إذا جاز لي ياسيدى الرئيس أن أختم خطابي ببعض آراء فلسفية ، أثارها في حضوركم اليوم في هذه القاعة ، لقلت إنه يخيل إلى أن نزاعا يقوم اليوم بين عاملين قويين . فهناك رسالة الدم والموت ، والقائمون بها يتخيلون كل يوم طرقا جديدة للقتال والفتك بالإنسانية ، فيضطّر الشعب أن يكون مستعداً على الدوام للذهاب إلى ساحة الوغى . وهناك على نقيض ذلك رسالة السلام والأمن ، وليس للقائمين بهذه الرسالة مطمح إلا تخليص العالم من الشرور التي تهدده . والرسالة الأولى غايتها

الفتوحات فتضحى بمئات وآلاف من النفوس من أجل شخص واحد ، أما الرسالة الثانية فتفضل روحاً بشرية واحدة على جميع الانتصارات مهما عظمت . والرسالة الى العمل لها تسمى وراء شفاء تلك الجروح الدامية . وربنا وحده هو الذى يعلم أى الرسالتين ستكون لها الغلبة فى النهاية ، ولكن الذى يمكن أن نؤكد أنه هو أن العلم الفرنسى سيبذل كل جهد مستطاع فى سبيل خدمة الإنسانية ، فيعمل بذلك على توسيع حدود الحياة وامتدادها .



وهذا المعهد ، الذى كانت نواته فيما تبرع به قيصر روسيا لباستير ، قد ازداد اتساعاً على مر الأيام ، وأنشئ من أمثاله كثير فى فرنسا وفى البلدان الأخرى فى جميع أنحاء المعمورة . ولقد كان الغرض الأساسى منه فى بادىء الأمر تخصيص اللقاح اللازم لمعالجة السعور ، ولكن نطاق أعماله اتسع فصار معهداً كبيراً للتعليم والبحوث المختلفة فى نواحي الطب والكيمياء يُحجج إليه من جميع الأقطار ، إذ قامت على إدارته بعد باستير جيلاً بعد جيل جماعات من تلاميذه العبقريين ومن أخذ عنهم .

وقد قام المعهد لفرنسا والعالم أجمع بخدمات عظيمة جليلة الشأن ، خففت كثيراً من ويلات الإنسانية ، وأنقذت الملايين من البشر ، وعددأ كبيراً من الحيوانات البائسة . وقد تجلت هذه

الخدمات ، بمقدار واسع النطاق ، أبان الحرب العظمى الماضية .
ولقد حافظ تلاميذ باستير وأتباعهم على الأمانة من بعده ،
واستمروا في حمل المشعل الذي كان يحمله ، فعم نفعه ونوره
أنحاء المعمورة . فكان منهم الباحثون العظام ، وكان منهم الذين
كشفوا عن أسباب أمراض كثيرة وبيلة ، وتوصلوا إلى إيجاد
طرق لعلاجها والوقاية منها . وقد ساروا جميعاً على نهج أستاذهم
الأكبر باستير ، وهم يرون من التشريف أن يدعوا بالباستيريين .
وانه ليضيق المقام عن تفصيل القول فيما قامت به هذه الجماعة ،
في حياة باستير وبعد وفاته ، من أعمال عظيمة عادت على الإنسانية
بالخير . لذلك نكتفي بذكر أسماء بعض أفراد هذه الجماعة ، مع
إشارة موجزة إلى ما قاموا به .

فمنهم ديكلو Duclaux ورو وشمبرلاند ، ونضيف إلى ما سبق
قوله عنهم أن رو قد وفق في السنوات الأخيرة لباستير إلى
كشف سم ميكروب الدفتريا ، كما وفق إلى طريقة لتحضير المصل
الواقى من هذا المرض الوبيل ، ومنهم أيضاً متشينكوف
Metchnikoff الروسي الذي حضر إلى المعهد وتلمذ على باستير ،
وله في المناعة وإطالة الحياة بحوث . ومنهم يرسين Yersin الذي
وفق إلى كشف ميكروب الطاعون وكيفية العدوى به والوقاية

منه . ومنهم كانت Galmelle وله بحوث قيمة في السل وفي الطب التجريبي ، وهو الذى أتقن تحضير التيوبركلين المستخدمة في تشخيص السل وعلاجه . ومنهم فيدال Widal وهو صاحب الاختبار الذى يعرف باسمه تم اكتشاف عن ميكروب الحمى التيفودية . وغير هؤلاء كثيرون (١) .

١٣ - الاحتفال بالعيد السبعيني لباستير

لقد كان يوم ٢٧ / ١٢ / ١٨٩٢ يوما مشهودا ، إذ اجتمع في المدرج الكبير بالسوربون مندوبو فرنسا والدول الأخرى وأعضاء

(١) بعد الاحتفال بالعيد السبعيني لباستير بقليل وصله الخطاب التالى من « والدته » ، « سيدى لقد قت بأجل ما يمكن أن يقوم به رجل على سطح الأرض ، وإذا أنت أردت فانك تستطيع حتما الوصول إلى طريقة لمعالجة مرضى الدفتريا الذى يفتك بأطفالنا . وإن هؤلاء الأطفال الذين تلقنهم اسمك ، وتعلمهم أنك أكبر محسن ، يطالبون بحقهم في الحياة ، وكان لهذا الخطاب تأثير كبير في نفس باستير ، فتمنى أن يقوى على العمل ، وأن تطول حياته ، وأن يتمكن من إجابة هذا النداء . ولكنه لم يضع وقتا في الأمانى فأخذ الدكتور دو أمب العمل عنه . وكان ميكروب الدفتريا معروفا وقد فصله المانى يدعى لوفلر ، وكان معروفا أيضا أن هذا الميكروب يستقر مكان الإصابة في الزور ولا يرسى سمه في الدم ، فتمكن دو من كشف سم هذا الميكروب . وجاء المانى آخر هو بهرنج من نلاميد كوخ فمكشفت عن المصل المضاد لهذا السم . ثم جاء دور دو مرة ثانية فوافق إلى الطريقة التى يحضر بها هذا المصل الواقع بمقادير كبيرة .